إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ

إن أي أثر فاعل في المجتمع لن يكون على مستوى التغيير **حتى يرتقي إلى مفهوم العبادة.**

والعبادة هي كل فعل يتقرب به الإنسان إلى معبوده، فحين نتحدث عن إصلاح مجتمعاتنا، وعن رغبتنا في الانتقال بها إلى الأحسن والأفضل..، إذا لم يكن ذلك مرتبطاً بنية التقرب إلى الله سبحانه وتعالى فنحن والماديون سواء...

إذا أردنا تحسيناً في مستوى العلم؛ فنحن نستمده ونطور مدارسنا وجامعاتنا من الباعث الكبير:

(وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا) طه: 114 .

(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) الزمر: 9

وإذا أردنا أن نزيح الغش، والرشوة، والفساد... فنحن نستمد ذلك من قوله تعالى:

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ) هود: 112

وإذا أردنا أن نتحدث عن حقوق المرأة والرجل فنحن نستمد ذلك من قوله تعالى:

(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ) التوبة: 71

وهكذا يرتقي أهل الإيمان في إصلاح المجتمع إلى سوية لا يرتقي إليها غيرهم لأن الباعث أكبر.

ولا أعتقد أن القومية أو الوطنية تكفي كمنطلق وباعث، وقد رأينا تهافت الذين انطلقوا من تلك المنطلقات ووقوعهم في الفساد.

الإنسانية بمفهومها المفرغ – لا تكفي كمنطلق وباعث - فحين أعلن الشرق يوماً من الأيام الشيوع والتساوي الإنساني... كان ذلك إنسانية مفرغة من المضمون، فقيرة من البواعث.

وهكذا يا إخوتي وأنتم مدعوون جميعاً على كل الأصعدة إلى ممارسة التغيير والإصلاح، في وقتٍ يعاني فيه مجتمعنا من الترهل، والعجز والضعف، فحينما نربط هذا التغيير، ونربط كل فعل إيجابي إصلاحي بمفهوم العبادة نرتقي بهذا الإصلاح، وهو المتضمن في قوله:

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ) الفاتحة: 5.

فإياك نعبد لا تعني (لك نصلي) وحسب، ولا تعني (لك نصوم) وحسب، ولا تعني (لك نزكي) وحسب، ولا تعني (لك نحج) وحسب... إنما تعني كل فعل نافع يرتبط بالنية الصالحة.

ولقد حدثنا المصطفى صلى الله عليه وسلم:

(أن رجلاً لم يعمل خيراً قط أزاح عن طريق الناس غصن شوك فشكر الله له فغفر له).

فحين تزيح الأذى عن الطريق، وهو من أدنى أنواع الفعل الإيجابي، ويكون ذلك مع نية صالحة، تسمو بهذا العمل إلى رتبة العبادة.

ولكن مهما كان الإنسان مؤثراً، ومهما كان الإنسان إيجابياً في أفعاله فإنه يحتاج إلى عنصر آخر وهو **الاستعانة بالله سبحانه.**

فمهما توهمنا أننا نستطيع أن نرفع أو نخفض، ومهما توهمنا أننا نستطيع أن نصلح، إذا لم يرتبط ذلك باستعانةٍ صادقة نستشعر معها فقر العبد وحاجة العبد إلى الله فلن نفلح.

حينما نكون في السراء نستعين بالله ونستشعر معنى العبودية المفتقرة إلى الله سبحانه.

وحينما نكون في الضراء نستشعر معنى العبودية والحاجة إلى الله سبحانه وتعالى.

ولقد لفت انتباهي يا إخوتي أن كتاب الله سبحانه وتعالى كان يكرر تتابعاً وتتالياً ذكر سليمان وأيوب، ففي سورة الأنعام، قال:

(وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ) الأنعام: 74.

وفي سورة الأنبياء قص قصة سليمان ثم انتقل بعدها إلى أيوب عليهما الصلاة والسلام:

(وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ، وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ، وَأَيُّوبَ، إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ) الأنبياء: 80-84

وفي سورة ص يقول سبحانه وتعالى:

(وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ)

(نِعم الْعبد) سليمان الذي كان يعيش في السراء, ويملك كل شيء, لكنه لم يفارق مفهوم العبودية..

كان يتحرك في دائرة (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

كان مِلكاً, وكان كل شيء مجنداً له, لكن الله سبحانه وتعالى قال فيه:

(نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ، إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ) الخيل (فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي) أي لم يكن حبي للخير عن شهوة نفس, إنما كان

ذلك عن حب الله سبحانه وتعالى للجهاد في سبيله, لأن آلة الحرب كانت في وقته الخيل.

(إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي) أي بسبب ذكر ربي, فكان ذكر ربي سبباً لحب تلك الخيل، وبسبب ذكر ربي أحببتها, لا عن شهوة نفس.

(حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ) فمن كثرتها لم تعد تُرى

(رُدُّوهَا عَلَيَّ) فلما ردوها عليه (فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ) أي تكريماً لها, ولم يكن ذلك التكريم منبعثاً إلا عن ذكر ربه أيضاً , والذي له علم بالخيل يعلم أن تكريمها يكون بمسح سوقها وأعناقها, فيمسح صاحب الفرس ساقها إكراماً لها, ويمسح عنقها...

لكن كل ذلك كان يا إخوتي منبعثاً من ذكر ربه, لذلك قال الله في حقه:

(نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ)

(وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ، قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ، فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاء حَيْثُ أَصَابَ، وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاء وَغَوَّاصٍ، وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ، هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ .

وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ

فأتى بعد سليمان بذكر أيوب, وأيوب هو الأنموذج بين الرسل الذي عانى من الضراء, فانظر كيف يكرر القرآن الكريم ذكر سليمان مع أيوب.

(وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ، ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ، وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ)

فانظر كيف تكررت هذه الصفة في سليمان الذي ملك كل شيء, فقال الله في حقه:(نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ)

وفي أيوب الذي عاش في الضراء والمحنة فكان صابراً لأمر الله سبحانه وتعالى فيها فوصفه الله بنفس الوصف (نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ)

أقول هذا حتى نحول أعمالنا كلها إلى هذه الدائرة؛ دائرة: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

في سوقك اجعل سوقك في دائرة: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

وفي وظيفتك اجعلها في دائرة: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

وفي تطبيبك اجعله في دائرة: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

في هندستك, في صناعتك, في زراعتك, اجعلها في دائرة: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

وإنه والله للطريق الأسمى للإصلاح والارتقاء, لأنه لن يكون عمل أرقى من عمل يرتبط بمفهوم العبادة, وسيكون بالضرورة إيجابياً..

ولما كان مستعيناً بالله سبحانه وتعالى فإن الله سبحانه وتعالى بفضله وكرمه سيفيض عليه عطاءه ومنته كرمه..

فلا بمفهوم المادة المجردة, إنما بمفهوم ربط المادة بالنية الصالحة, والاستعانة بالله سبحانه وتعالى يمكن لنا أن نُحدث تغييراً على مستوى

الدعوة, وعلى مستوى العلم, وعلى مستوى العمل, وعلى كل المستويات في هذا المجتمع.

اللهم ردنا إلى دينك رداً جميلاً

واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.